الممارسة النقابية بين الفكر والواقع
(رؤية من الدخل)

كثيرة هي القضايا التي يفرزها المشهد النقابي فكرا وممارسة ، وثمة محطات باتت تشكل بحق منعطفا حاسما في مسار هذه المنظمة أو تلك ، ولعل المؤتمر الرابع للجامعة الوطنية لموظفي التعليم غير بعيد عن هذه المساحة ، لما شهده كحدث تاريخي ، لا نبالغ بأنه وضع الجامعة الوطنية لموظفي التعليم تحت مجهر المكاشفة ، كما أنتج حراكا فكريا ومخاضا منهجيا على مستوى الاختيارات الكبرى ، عجزت المرحلة السابقة عن أن تنجبه ، أو حتى تحدث نفسها عن ولادة تشبه ما تمخض عنه المؤتمر الأخير .
حقيق أن المؤتمر الرابع للجامعة الوطنية لموظفي التعليم حقق ما لم تحققه المؤتمرات السابقة على مستوى الجرأة الزائدة في النقاش ، واعتبار الآليات الديمقراطية هي أنجع الأساليب التنظيمية للوصول إلى توافق يرضي جميع الأطراف ، وأن القيادة ليست صورة شكلية تحركها الكراسي الخلفية ، بل هي رمز لتوحيد الجهود بما تملكه من قوة اقتراحية وقدرة على الاشتغال بمنطق الفريق ، لا بمنطق الإملاءات الفوقية .
لكن إلى جانب ذلك فقد كشفت هذه المحطة عن استتباب العقلية الحزبية ، وكون الجامعة الوطنية لموظفي التعليم ليست صفا واحدا كما كان يحسب الكثير من المنتسبين لهذه المنظمة بل شيعا ، وفرقا ، تحسبهم جميعا ومناهجهم شتى ، فهناك دعاة المحافظين الذين يرون في التغيير ضربا للقدرة التجميعية التي ظلت النقابة تتمتع بها لعدة عقود ، وثورة على منهج المؤسسين السابقين ، وهناك دعاة التغيير والتشبيب الذين يتطلعون بقوة إلى خلخلة المشهد النقابي وإعادة ترتيب البيت الداخلي ،رغبة في بعث دماء جديدة تضخ الحياة في شرايين المنظمة التي أشرفت على التصلب .

إننا لا ندعي للوهلة الأولى عصمة الزاوية التي ننظر من خلالها ، أو امتلاك المفاتيح السحرية الكفيلة بفرز كل الخيوط التي نسج منها هذا الواقع الذي صارت فيه كل طائفة تنتصر لفكرتها قلما وربما سيفا إن توفرت لها الظروف والشروط ، بل إن ما حملنا على طرق أبواب هذا الموضوع والنبش في أغواره هو ما أصبح يعج به "البيت الزجاجي" لمنظمتنا من ممارسات باتت تفقد العمل النقابي مصداقيته وتزيحه عن سياقه الأصلي وتزيغ به عن أهدافه التي وجد من أجلها . وقبل استعراض أي فكرة في شأن ترشيد هذا العمل وتوجيهه وضبط حدوده وأولياته نود التذكير أن منطلقنا في ذلك كله هو نقد الممارسة النقابية لا نقضها ومساءلة الوعي الجماعي عن حدود المسؤولية في ما تشهده الجامعة في الآونة الأخيرة ؟ ومن خلال هذه المساءلة ، يتزايد فضول أكثر إلى وضع واقع الجامعة تحت مجهر المكاشفة ، عبر رصد دقيق لبعض السلوكيات التي صارت عنوانا عريضا لهذا الأداء من قبيل الشعارات والكلمات والتحالفات ...
فهل نحن بحاجة إلى الشعارات ؟ ومأساتنا أننا سقطنا أمام بريق الشعارات.
هل نحن بحاجة إلى الكلمات ؟ ومأساتنا أن الكثيرين خيل إليهم أن الصخب فيها يمثل الاقتراب من الحق ، ففي كل جولة صاخبة نصر ، وفي كل هتاف ينطلق في الهواء فتح . فهل هذا هو المعنى الحقيقي للنضال ، والذي يعتبر مقوما أساسا وركيزة من ركائز الفعل النقابي ، بل لا يمكن تصوره ولا استيعاب حدوده بدون تحديد دقيق لهذا المفهوم .
إن لغة الكلمات وأسلوب الشعارات وغيرها ، كل ذلك يمكن أن يتحرك في خطين :
الخط الأول : أن تكون الكلمات هدفا استعراضيا لقائليها ، وأن تكون التحالفات خطوات نهائية لمنفذيها وعند ذلك ينتهي الأمر عند انتهاء الكلمات والتحالفات ويموت الهدف لأن ذلك يفقد الإنسان الشعور بالقيمة العليا في الوصول إلى أعلى مراتب الصواب وتحقيق المقاصد .

الخط الثاني : أن تكون الكلمات خطوات متقدمة نحو الهدف الكبير ، وعند ذلك لن تكون الكلمات عشوائية بفعل الانفعال ولن تكون الشعارات ارتجالية بفعل الحماس . الكلمات تمثل خطوة في المرحلة ، والشعارات تمثل خطا في الطريق الطويل .. وهكذا تتقدم الكلمات وتتحرك الشعارات لتتحول كل كلمة إلى فعل بناء ، وكل شعار إلى قوة لانتزاع الحقوق وتحصين المكاسب .
إن قضية أن تكون مناضلا هي قضية أن تكون صادقا ، والواقع المستكبر لا يخاف من شيء كما يخاف من الصدق والصادقين ، لأن الإنسان الصادق لا يمكن أن يزور الحقيقة على نفسه وعلى الناس . فالصادقون هم الذين يرفضون أن يبيعوا كلماتهم ومواقفهم ، ويتعاملوا مع سياسة اللف والدوران ، مهما كانت قيمة الذين يلفون ويدورون ، ومهما كانت مواقعهم المتقدمة في الساحة .
فقضية الحركة النقابية هي كونها تمثل قيمة الصدق في حياتنا .. وهذه كانت قصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع العالم ؛ قصته أنه كان صادقا مع نفسه ، لم يلعب على المواقف ولم يمارس سياسة الاستعراض ولم ينطلق على أساس الأساليب المهتزة .
كان يتقدم بصدق ، ويتألم بصدق ، ويعيش المشكلة بصدق ، ويواجه الحسرة على قومه بصدق .
كان الكذب يتقدم إليه فيجد الاستنكار والرفض ، فيتراجع وهو في غاية الدهشة والعجب . وجاء الكذب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه كل الطموحات التي يفكر بها الآخرون : المال ، الجاه والسلطان ... وكانت كلمة الصدق تقف بالمرصاد لكل ذلك .
" والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته " .
هكذا نريد أن تكون قصة الإنسان في المجتمع والمناضل من داخل النقابة ، يحمل الشعار وهو أول من يؤمن به . يدعو الناس إلى الشعار وهو أول من يعيش روحيته .
ومن تم نجزم بالقول أن العمل النقابي الأصيل بات يكلف صاحبه كثيرا ويحمله مشقة وتعبا ، ويقوده إلى التضحية لكي يقف أمامها وجها لوجه ، ولهذا فإن على المناضل أن يشعر أن العمل في سبيل الله ليس نزهة يتنزه فيها ، بل هو في مفهومه النبيل أن تقف في ساحة الحياة لتنظر كل انحرافاتها لتقف ضدها وقفة صدق وتعمل على إزالتها .. ثم لتواجه كل أنواع الظلم ونماذجه وأساليبه ، فتشعر أن عليك أن تقف ضده في كل أشكاله وألوانه من غير فرق بين الظلم الصغير والكبير .
إن العمل النقابي الراشد يعني أنك تتطلع إلى كل ألوان الظلم والاستبداد في الحياة لتقف ضده بكل أشكاله وألوانه في خطة فكرية وعملية محددة تكون في مستوى التحدي الكبير الذي يثيره أنصاره . إن العمل في سبيل الله يعني أن تقف ضد التيار الظالم الأهوج ولابد للإنسان الذي يريد أن يسبح ضد التيار أن يتحمل كل اندفاعات التيار، في كل ما يمثله التيار من قوة . فذلك هو السبيل الذي يمكن أن يصل إلى الهدف الكبير . إنه الذي لا ينتظر الهدف على التل ، من أجل أن يسعى إليه وهو جالس مع أحلامه في استرخاء .. لأن الهدف لا يسعى إلى صاحبه بل يظل في مكانه لينتظر السائرين نحو ه والمندفعين إليه في خطواتهم المنطلقة أبدا نحو مطالع النور و مساقط الينابيع .
ولا يخفى عن لبيب أن ممارسة العمل النقابي تقتضي الوقوف مع الإنسان المستضعف بتحسس آلامه ومعايشة قضاياه . فالنقابي الرشيد لا يركب الموجة من خلال الناس ليصل إلى مطمح أو مطمع ذاتي ، بل يعمل على أن يخدمهم بكل صمت ويعيش معهم بكل إخلاص من موقع المسؤولية لا من موقع الإحسان الفوقي الذي يتطلع فيه الإنسان إلى الآخرين من فوق .
فإن الله أراد للمؤمنين أن يعيشوا مع البسطاء الذين يعبدون الله بوعي وبساطة ويعيشون حالة الاستضعاف في الحياة وذلك قوله تعالى : " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا " (الكهف – 28) . هؤلاء هم الذين يعيشون من أجل أن يحصلوا على كرامة الحياة .. الذين يناضلون من أجل أن يحققوا لأنفسهم العزة والاحترام في الواقع الذي يسيطر عليه المستكبرون .. مع هؤلاء يريد الله للإنسان الرسالي أن يعيش ويتحرك

ويندمج في حركة العمل الهادف ، لأن هؤلاء هم جنود الرسالة الذين قال عنهم قوم نوح فيما حكاه الله عنهم : " ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ... " (هود – 27) .
ولعل من يتفيأ ظلال القرآن ويغترف من معينه الذي لا ينضب ، يدرك حقيقة الصورة التي جلاها بشأن طبيعة النفاق والمنافقين بشكل عام ،فيما يخص نواياهم وطريقة اشتغالهم على جميع الأصعدة . ومنهم من يحشر نفسه في زمرة النقابيين المخلصين لا لينهج مسلكهم أو يسعى جاهدا ليحقق ما اتفق عليه من أهداف للمصلحة العامة ، بل لتنحصر الأهداف كلها في دائرة ضيقة لا يستفيد منها غيره بدافع الجشع الذي يلبسه ويأسره ، وذاك قوله تعالى " ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبيس المهاد " . (البقرة – 202- 203 - 204) . إن الله يريد أن يستعرض لنا نموذجا من هذا الواقع الذي يحمل في ظاهره مودة وإخلاصا ومحبة ، ولكنه يخفي في باطنه حقدا وعداوة وبغضا كل ذلك من أجل أن يعلمنا أن الظواهر لا تكفي للحكم على الأشخاص ، بل أن ننظر إلى العمق ، ألا نأخذ الواقع ببساطة ، بل هناك الكثيرين المزيفين الذين يدخلون على خط الرسالة ليستفيدوا من الجو الذي تعطيه والثقة التي يحملها صاحبها لدى الناس .
لهذا نقول لا تركضوا وراء الكلمات التي تلعب على مشاعركم وعواطفكم لأن الكثيرين يتقنون هذه الكلمات ويعرفون كيف يلعبون بها ، بل ادرسوا كل كلمة ؛ خلفياتها ومن نطق بها ، ولماذا نطق بها والأهداف التي يسعى إليها . . وعندما يواجهون بمصداقية الشعار ، وأنكم تفسدون هذا الفكر، وتفسدون الواقع عندما تمنعون أصحاب الفكر من التعبير عن فكرهم والسماح لهم بالامتداد ، يجيبون إنما نحن مصلحون ، نعمل على جعل الفكر متناسبا مع تطورات الحاضر بجعله أكثر تقدمية ، يوحون ذلك حتى لا يتكشف واقعهم ، والله يرد عليهم " ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون " . لأنهم لم يفهموا هذا الفكر على حقيقته ولا يريدون أن يفهموه لأنه سيؤثر على وجودهم وامتيازاتهم ويجعلهم في موقف الاتهام عند التحديات ، لذلك هم يسعون إلى إحاطة تصرفاتهم بتبريرات يفسدوا من خلالها هذا الفكر .

ذ . بوشتى بوكزول
عضو المكتب الإقليمي
للجامعة الوطنية لموظفي التعليم
طنجة أصيلة